من أوراق الرئيس(9)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

أحنيت رأسى للعاصفة وأحنيتها لمصر أكثر

فى سنة 1971 قرر الرئيس السادات أنها سنة حسم القضية وإزالة آثار العدوان.. وكان قد أزال عدواناً آخر على مصر عندما صفى مراكز القوى.. ولولا الوعود السوفيتية على أرفع المستويات ما أعلن فى كل المؤتمرات الشعبية الكبرى أن سنة 1971 هى " السنة " التى اختارها وشاءها القدر..

ويقول الرئيس السادات إنه أحنى رأسه للعاصفة الهوجاء التى هبت عليه من موسكو.. ولكنه فى نفس الوقت أحنى رأسه لمصر فمن أجلها هانت عليه أشياء كثيرة.

سافر الرئيس بودجورنى وفى حقيبته معاهدة صداقة مع مصر. وهذه المعاهدة اعتبرها السوفيت ضماناً جديداً للعلاقات الودية بيننا.. ورأت فيها الصحف السوفيتية نجاحاً لروسيا وهزيمة لأمريكا التى حاولت بزيارة روجرز لمصر أن "تدق إدفينا فى العلاقات المتينة بين البلدين".

كما أن السوفيت رأوا فى هذه المعاهدة بعد تصفية رجالهم فى السلطة، تأكيداً لأن العلاقة بيننا ليست علاقة أشخاص بأشخاص، وإنما هى علاقة دول. علاقة أبقى وأهم من الأشخاص..

والذى يقرأ الصحف السوفيتية فى ذلك الوقت يجد أن السوفيت سعداء بهذه النهاية، أو بهذه البداية. وعلى الرغم من أننى استرحت بعض الشئ، فإن همومى لم تخف. فعندى تجارب معهم قبل ذلك طويلة وعديدة. ولكن جعلت أمنى نفسى. ولم يغب عن بالى لحظة واحدة: أننى قد حددت سنة 1971 بسنة الحسم. ومعروف للعالم كله، وللسوفيت، ما هذا الذى نريد أن نحسمه. وما هو المطلوب من السوفيت لكى يساعدونا على ما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه..

وأهم من ذلك كله أننى أوضحت كل شئ .. فتحت قلبى للروس تماماً. وأطلعتهم على كل خباياى.. بل إن بعض المعلقين السياسيين لاحظوا أننى حتى فى حفلات الترحيب بالرئيس بودجورنى لم أغفل لحظة واحدة عن ذكر مخاوفى وعن تحذيرى له..

ففى حفلة العشاء التى أقامها لى الرئيس بودجورنى فى القاهرة يوم 27 مايو قلت من أول لحظة: إننى أشكر لكم من صميم قلبى كل ما أظهرتموه من الشاعر تجاه هذا الوطن وشعبه.. وفى مساندة نضاله وقضاياه العادلة..

وقلت له: وأهم من ذلك كله ما أعطيتموه من " فهم وصداقة مخلصة فى كل الظروف.. وذلك هو أكثر من أى معنى آخر ".

وقد لاحظ المعلقون السياسيون أننى أكدت معنى " الفهم الحقيقى " لوضعنا وسياستنا وحرصنا على حريتنا فى اتخاذ قراراتنا المصيرية.. وأن هذا " الفهم " أراه أهم من أى شئ آخر.

وأشار المعلقون إلى ما قلته أيضاً فى ختام خطابى فى هذه الحفلة . فقد أكدت من جديد له وللقادة السوفيت ولشعوبنا العربية:

" أننى لست فى حاجة إلى أن أضيف أمامكم جديداً لما يدافع عنه شعب الجمهورية العربية المتحدة وشعوب أمتنا العربية بأسرها من مبادئ وحقوق ".

" نحن بوضوح ضد الاستعمار "

" نحن بوضوح ضد سياسات السيطرة ".

" نحن بوضوح ضد العدوان "..

" نحن بوضوح مع حق كل شعب فى صنع قدره وتنمية قدراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية "..

" نحن بوضوح مع كل شعب فى اختيار طريقه إلى ما يريد "

" ونحن بوضوح مع السلام القائم على العدل.. "

وقد تنبه المعلقون السياسيون والصحف الغربية إلى عبارة جاءت في كلمة الترحيب في الحفل الذى أقمته للرئيس بودجورنى قبل ذلك بيوم واحد.

فقد قلت: نحن نريد أن يعرف الكل أننا ليسنا على استعداد لأن نفرط في الأرض أو في الحق مقابل سراب، كما أن الكلمات المعسولة ليست دليلاً على صدق النوايا التي وراءها.".

واسترحت إلى أن المعانى التى أردت أن أؤكدها للسوفيت أمام العالم كله، قد بلغت غايتها. فأنا أريد فقط من السوفيت أن يفهمونى، وأن يقدروا موقفى أمام شعبى وأمام العالم. وأن تكون الصداقة والكلمات الحلوة حقيقة. وليست فاتحة للشهية، ولا يجئ بعدها طعام.. بل لقد ذهبت صحيفة "البرافدا" فى ذلك الوقت إلى وصف هذه المعاهدة بأنها هزيمة مؤكدة للأمريكان فى المنطقة..

وقبل أن أجلس وأريح ظهرى ورأسى وأمدد قدمى لأفكر فى شئ جديد وفى الصورة التى أمامى.. وفى الخطوة التالية التى أنا مقدم عليها أحسست بتحركات مريبة فى المنطقة. إذا يبدو أنه لن تكون هناك راحة فقد علمت بصورة مؤكدة أن شيئاً ما سوف يجرى فى السودان.

وكنت مجتمعاً فى مرسى مطروح مع حافظ الأسد ومعمر القذافى.

وأرسلت برقية لجعفر نميرى فى 18 يوليو أطلب إليه أن يجيء بسرعة لأمر هام. وكان رد جعفر نميرى أنه سوف يجيء إن شاء الله فى يوم 23 يوليو ليحضر معنا المؤتمر القومى. وكان قلقاً . وكان معنا بقلبه.

وكان إحساس أن الذى خسره السوفيت فى مصر، لابد أنهم يريدون تعويضه فى السودان. ولا انفصال لمصر عن السودان، أو للسودان عن مصر. فالذى يقع فى أحد البلدين يصيب الآخر.. هذه حقيقة يؤكدها التاريخ الطويل بين الشعبين الشقيقين فمصر هى السودان والسودان هو مصر.

ثم عدت أطلب من جعفر نميرى أن يحضر فوراً لأن الأمر عاجل ولا يحتمل التأجيل بضعة أيام.

وجاءنا زين العابدين فى مرسى مطروح.

وقلت له : يا زين .. إن هناك شيئاً خطيراً سوف يقع فى السودان.. والضربة التى أخذها السوفيت فى مصر سوف يردونها لكم فى السودان .. معلومات مؤكدة والصورة واضحة أمامى.. سافر فوراً .. وانقل للرئيس جعفر كلامى حرفاً حرفا. وأن الذى أقوله ليس مخاوف وإنما هو حقائق.

وسافر زين العابدين عبد القادر، ونزل إلى مطار الخرطوم عندما حدث الانقلاب، واعتقلوه وحبسوا جعفر نميرى.

إذن لقد وقع ما أحسست به. وكان انقلاباً شيوعياً. ولم تمض على معاهدة الصداقة مع السوفيت سوى ثلاثة أسابيع.. معاهدة الصداقة والفهم واحترام وإرادة الشعوب وعدم التدخل فى حق كل شعب فى تقرير مصيره؟!.

فى ذلك الوقت كان عندنا فى القاهرة رجل سوفيتى أسمه بوريس بوناماريبف. رجل كبير فى السن.. ومن أغبى الناس الذين رأيتهم فى حياتى. وهو سكرتير اللجنة المركزية مثل برجنيف. وإن كان سكرتيراً إدارياً. أما برجنيف نهو السكرتير السياسى للحزب. وبوناماربيف يحضر عادة فى كل المفاوضات التى يجريها السوفيت لأنه المسئول الأول عندهم عن الأحزاب الشيوعية. وهو على درجة من الغباء ليس لها نظير. وكان من المفروض أن يحضر معنا احتفالات 23 يوليو. ولابد أن وجوده فى مصر فى ذلك الوقت كان خطة. أما الخطة فهى أنه كان ينتظر ما سوف يجرى فى مصر. يريد أن يعرف كيف تسير الأمور فى مصر بعد المعاهدة. يريد أن يطمئن على مصير العلاقات السوفيتية المصرية.. وأهم من ذلك كان يريد أن يشهد عن قرب نهاية المخطط الذى سوف يؤدى إلى سقوطى ودخولى السجن.. وبعد ذلك سقوط النظام فى السودان.. وهذا الرجال بوناماريبف هو العقل المدير لحركات الأحزاب الشيوعية وعملاء السوفيت فى المنطقة. وقد جاء يشهد بنفسه النتائج الباهرة لسياسته وعبقريته فى إسقاط الحكومات الواحدة وراء الأخرى!.

ولم أعرف إلا فيما بعد أن بوتاماربيف قد أشار قبل ذلك إلـى ضـرورة سـاندة السوفيت للشيوعيين العرب أو "للديموقراطيات الثورية" .. فهذه هى التسمية الجديدة التـى أطلقوها على الأحزاب الممالئة للسوفيت والعميلة لهم فى المنطقة ففى يونيو 1971 كتـب بوتامربيف مقالاً فى "مجلة العالم الماركسى" تعليقاً على المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى.

إن الحزب الشيوعى السوفيتى يجـب أن يمضـى فـى مديـد الصـداقة لكـل الديموقراطيات الثورية، إنهم رفقاء السلاح ضد الإمبريالية".

ثم قال أيضاً فى هذا المقال ما معناه : إن مساهمة الأحزاب الديموقراطية الوطنية فى جلسات مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى يؤكد هذا النمو المتزايد لعلاقات الصـداقة والتفاهم. وإن مثل هذه العلاقات بين هذه الأحزاب والحرب الشيوعى السوفيتى لدليل على نوع جديد من الحركة الشيوعية فى العالم كله وحركات التحرر الوطنى.. وأن مثل هـذا التضامن سوف يقوى علاقتنا بالحزب الشيوعى السوفييتى، وعلاقتها ببقية المواطنين فى البلاد الأخرى.

وفى نفس الوقت كان واضحاً أن رأى السوفيت فى الشيوعيين العـرب متواضـع جداً. بل إنهم انهموا الأحزاب الشيوعية العربية بالهزال أو بالتفاهة. وقد وضـع الآن أن هذا الاتهام كان نوعاً من التعمية حتى لا يتوقع أحد فى العالم العربى أن الشيوعيين يمكن أن يكون لهم أى دور من أى نوع. وبذلك تغمض العيون عنهم . لأنها يجب ألا تـراهم.. أو لا تستطيع أن تراهم لضالتهم وتفاهتهم.. حتى جاءت هذه الحركة فى السودان!.

ومن المؤكد أن السوفيت ليسوا سعداء لكل ما حـدث فـى مصـر بعـد جمـال عبدالناصر.

فأنا لست رجالهم.

وإننى ألغيت الحراسات التى فرضت على الناس.

ثم إننى بطبيعتى ضد القهر والظلم وإثارة الأحقاد بين الطبقات والفئات.

ثم إننى أسمح بالخلاف ولا أسمح بالصراع...

ثم إننى أكدت أننى مختل معهم.. وصارحتهم بغضبى وضيق.

ولابد أنهم يتوقعون منى ما يضايقهم أكثر. وقد هددتهم بأن المصير حدوداً وبعدها لابد أن أقول للشعب ماذا جرى.. وفى ذلك فضية لهم أمام العالم كله.. فهم يخافون أن أكشف القناع الذى يضعونه على وجوههم فيعرف الشعب حقيقتهم، وحقيقة الهوان والعذاب الذى لقيته وتلقاه مصر معهم.

ولهذا كله كان لابد أن يفعل السوفيت شيئاً بسرعة فى مصر أو فى السودان أو فى أية دولة أخرى فى العالم العربى أو الشرق الأوسط كله. وقد حدث بوضوح بعد ذلك .. وفشل الانقلاب الشيوعى فى السودان.

وفجأة تحرك هذا الرجل الروسى الموجود فى القاهرة بوناماريف.. ماذا يريد؟ إنه يريد مقابلتى لأمر هام ..وجاءنى بالقرب من الإسكندرية حيث كنت أستريح وكان الرجل منهاراً . وأنا أعذره فقد فشلت كل خططه فى الإطاحة بى فى مصر وبجعفر نميرى فى السودان، وجاء يطلب مساعدتى .. شيء غريب!.

وقد رفضت من أول لحظة أن يقوم أى نظام مثل هذا الذى أتى به السوفيت فى السودان . أرفض وجود مثل هذا النظام فى السودان و على حدودى الجنوبية. أرفض رفضا باتاً .

وأعلنت فى خطابى يوم 23 يوليو على مسمع من بوناماريف هذا .. التهنئة والتأييد الكامل لحكومة وشعب السودان.

وجاء بوناماريف يطلب منى أن أساعده على إنقاذ حياة بعض الشيوعيين أصحاب الإنقلاب الفاشل فى السودان. وطلبت جعفر نميرى تليفونياً.. وكان بوناماريف جالساً إلى جوارى. وسمعنى وأنا أتشفع لدى جعفر نميرى حتى لا ينفذ الإعدام فى الشفيع أحمد الشيخ.. أحمد أقطاب الإنقلاب الشيوعى.. وجاء الرد من جعفر نميرى: إن الشفيع قد أعدم منذ ساعتين.

وغضب الرجل والاتحاد السوفييتى طبعاً ورأوا فى موقفى من السودان عملاً غير ودى، أو لعلهم رأوه تدخلاً فى شئونهم " الداخلية ".. مع أن هذا الرجل قد سمعنى وأنا أعلن فى المؤتمر القومى امتنان مصر للمساعدات السوفيتية وكيف صفق الناس لذلك...

و فى نفس الوقت أعلنت بمنتهى الوضوح أننى لست شيوعيا: لم ولن أكون شيوعياً. ورغم ذلك فإننى أعتز بصداقة وأحرص عليها من أجل مصر.

لقد سمعنى وأنا أقول : إن الاتحاد السوفييتى قد قدم لنا بشرف وقدم لنا بلا قيد ولا شرط" معونات كنا بدونها لا يمكن أن نصمد السنوات الأربع الماضية.

و سمعنى وأنا أقول: لقد أعلنت فى 15 مايو أمام القوات المسلحة، وأعيدها مرة أخرى أمامكم ومن خلالكم إلى الشعب كله، وللأمة العربية، ولأصدقائنا وأعدائنا أننى لن أسمح أن تمر سنة 1971 دون أن تحسم هذه المعركة ... فإسرائيل الآن فى أروع حالاتها .. فلا نحن فى حالة حرب ولا نحن فى حالة سلم.. وإسرائيل رابضة على الضفة الشرقية بدون خسائر وتنتظر أن يحدث انفجار داخلى فى مصر..

وقلت فى ذلك اليوم و على مسمع من بوناماربيف والشعب والعالم: إن التحقيقات أثبتت أن على صبرى كان ينتظر " فرقعة " على حد قوله.. فرقعة فى داخل مصر .. فإذا حدثت الفرقعة وآلت لهم السلطة فلا داعى للحرب... ولكنى أقول وأكرر إن سنة 1971 حاسمة. وإذا اقتضت المعركة أن يكون هناك مليون من الضحايا فنحن فى استعداد لذلك..

و مرة أخرى فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى يوم 26 يوليو قلت : لقد قلت أمامكم والتزمت أمام شعبنا وأسمعت العالم كله أن هذه السنة سنة 1971 سوف تكون حاسمة فى أزمة الشرق الأوسط.. ومعنى ذلك أن الشهور القادمة سوف تكون شهور قرار. لست أقول إن طريقنا إلى النصر يجب أن يكتمل خلال هذه السنة.. ذلك أن الطريق أطول وأصعب .. ولكننى أقول إن هذه السنة يجب أن تشهد – بعون الله – تحركنا العملى نحو إزالة أثار العدوان..

و قلت أيضاً: وعلى أساس ما أعلناه من مبادئ و مواقف مهما اقتضانا ذلك من جهد وتضحيات. فلن نسمح لهذه الأزمة أن تتجمد معالمها ومعالم حقنا تحت تراب

النسيان، لابد أن نتحرك. وسوف نتحرك بعون الله سياسة وقتالاً . وأكرر أمامكم ما قلتــه فى أول مايو: العين بالعين. والسن بالسن والعمق بالعمق والنابالم بالنابالم!.

بعد هذا كله، وبسببه، حصلت قطيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى... لا كلام بيننا، ولا سلام أيضاً.

وبدأت أنا الكلام .. وبعثت أذكرهم بما قاله الرئيس بودجورنى من أن كل شـــيء سوف يصلنى بعد أربعة أو خمسة أيام. وأن هذا العام هو عام الحسم وشرحت لهم معنى الحسم.

ويجئ السفير السوفيتى وعلى لسانه العبارة التى عرفتها وسللتها: القادة الســوفيت فى القرم.

أى أنهم يصطافون على شاطئ شبه جزيرة القرم على البحر الأسود.. والدنيا كلها معطلة ذهاباً لا شيء يصل . وإياباً لا شيء يجئ!.

وأعود أذكرهم بالمعاهدة التى بيننا..

والجواب : القادة فى القرم.

وأقول للسفير: إن موقفى من السودان موقف مبادئ. قل لهم ذلك.

فيقول : إنهم فى القرم..

- وسنة الحسم؟
- القادة فى القرم.
- ماذا أقول للشعب المصرى وللعالم العربى وللعالم.
- فى القرم!.
- أما ما الذى يجب أن أفعله فهذه مسألة تخصنى أنا وحدى. ومن الضرورى أن أفك فى كل الذى قلته ووعدت به. لابد أن أجد لى صيغة مناسبة أواجــه بهــا الشعب. هل أحكى للشعب قصة السوفيت؟ هل أفضح هذه العلاقة! لــو فعلــت

ذلك لكان إضراراً مباشراً بالسوفيت.. هل من مصلحة مصر أن أفعل ذلك؟ ثم ما أقصى درجات احتمالى للأذى؟ إننـــى قـــادر علـــى أن أحتمـــل الكثيـــر.. ورصيدى من الصبر كبير.. ولكنى أخشى أن ينضب هذا الرصيد فاجدنى أمام حالة من الغضب لا أستطيع أن أسيطر عليها.. ولكن مصر؟ فمن أجلها يهون كل شيء. وقد هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة على نفسى.. حتـــى كرامتـــى هانت من أجل مصر .. ابتلعتها كثيراً وشربت وراءها أكواباً من التشهير بى وبنظامى فى الحكم.

وفى كل يوم أشعر أنهم لا يجففون الجراح، وإنما يضعون الملح على الجرح.

وأخيراً وفى آخر سبتمبر جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت علـــى استعداد لأن يروك.

قلت: خير.. متى؟.

قال: فى 11 و12 أكتوبر..

ولا أظن أن السفير قد لاحظ أننى كتمت غيظى أو ربط "الدم على القبح" كمـــا نقول فى الريف.

فقلت:؟ لا مانع. إنها قضية مصر.

ولكى يفهم الرجل بالضبط ما أردت أن أقول كررت المعنى قـــائلاً أنهـــا قضـــية مصر. ومن أجلها فإننى أتهاون مع نفسى.. رغم كل ما أصابنى.. فإنها قضـــية مصـــر. قبلت هذه الدعوى فوراْ.

ولم أقل له ما كان يدور فى نفسى من أنه لو كان الأمر يخصنى أنا ما ذهبت إلى موسكو أو حتى رأيت هؤلاء الناس. ولكن الضرورة لها أحكام . والضرورة هى مصـــر. أحكامها أن أمد يدى أطلب المزيد من السلاح.

وكما حدث فى أول مارس سافرت إلى موسكو فى 11 أكتوبر. والذى جرى فـــى الكرملين هو ما توقعته بالضبط. فقد كان لزاماً على أن أروى من جديد كـــل مـــا حـــدث

للعلاقات بيننا.. وما وعدوا به جمال عبد الناصر، وما وعدونى به .. مع أننى حكمت ذلك عدة مرات.. ومن الغريب أن لديهم استعداداً لسماع الشيء الواحد ألف مرة.. وكأنهم يسمعونه لأول مرة.

وارتفعت درجة حرارة المناقشة بينى وبين جيريتشكو. وثرت عليه . وكانت لهجتى عنيفة جداً . وتدخل كويسجين بيننا. ثم تدخل برجنيف مرة أخرى.. وبرجنيف رجل ممتاز ومشاعره معنا دائماً. ثم إن فهمه السياسي لقضيتنا سليم وواضح.

ثم أعدت عليهم ما سبق أن قلته إلى أن وصلت فى كلامى إلى ذكر (سنة الحسم) بعد كل هذا الذى أعلنته فى مصر أمام رجلهم بوناماربيف.. وما أعلنته بعد ذلك.. وما حكيته لهم، مطلوب أن أشرح لهم معنى سنة الحسم؟ ثم مطلوب متى أن أشرح لهم ما هو الحسم؟

ووجدت أن المناقشة طالت وأصبحت مملة وكأننى انفخ فى (قربة مقطوعة) كما تقول فى الريف.. أى أن الذى انفخه من هنا يخرج من الناحية الأخرى.. فهو جهد ضائع.. وهم جالسون أمامى فى هدوء وبرود.. وإن كانت سياستهم هى رفع درجة الحرارة حتى الغليان، ثم إنزالها إلى ما تحت الصفر. ويتفرجون وينتظرون ليروا ما هى النتيجة. وقد حفظت هذه السياسة جيداً، ولكن احتمالى لها لم يعد مستطاعاً.

ووجدت أمامى فرصة لهز الموقف ورفع درجة الحرارة فقلت لهم: لا يفوتنى أن أشكركم على أطقم صواريخ سام 3 السوفيتية التى بعثتم بها إلى القاهرة: شكراً جزيلاً.

ولكن أحداً منهم لم يهتز. فهم يتوقعون هذا الشكر أو المزيد من الامتنان. واتجهت مباشرة إلى ما أريد أن قوله لعلهم يفيقون فقلت: أشكركم. وأحب أن أنهى لكم أن رجالنا قد تدربوا على استخدام هذه الصواريخ ومن الممكن أن شغلوا مكان رجالكم فى دقيقة واحدة.. ولذلك أن الأوان لسحب الأطقم السوفيتية!.

وأهتز الاقطاب الثلاثة بعنف وكأننى وجهت إليهم صواريخهم وأطلقتها عليهم. وتحدث برجنيف وهو الذى.

فقلت: أريد أن أعرف منك الآن لماذا هى كارثة على الاتحاد السوفيتى؟

فأجاب: الوجود السوفيتى فى خطر!.

وأحسست أن برجنيف قد أعطانى السلاح الذى فى يده فقلت له فوراً: تقول الوجود السوفيتى.. إننى طلبت إليكم. وطلب جمال عبد الناصر، وجوداً سوفيتياً فى مصر فرضتم.. طلبنا الدفاع الجوى، وقيادة الدفاع الجوى.. وطلبنا سلاح الردع.. وجعلتم الموقف صعباً علينا فقلتم إن الأوامر يجب أن تكون من موسكو.. وطلبتم المعاهدة فوافقت عليها فوراً وتم توقيعها... وجاء بودجورنى ووعدنى بأن كل شئ سوف يصل بعد أيام وأن صفحة جديدة سوف تبدأ فى سجل العلاقات السوفيتية المصرية.. والآن تخاف على الوجود السوفيتى.. يا سيدى هات مائة ألف جندى سوفيتى إلى القاهرة. وأنا موافق على هذا الجيش فوراً.

ولم يرد أحد. ثم عدت أدق الحديد الساخن بيننا فقلت: أقبل هذا الوجود السوفيتى. ولكن بشرط..

واهتز الأقطاب الثلاثة ولابد أن درجة حرارتهم قد زادت بمقدار انخفاض درجة حرارتى عندما قلت: بشرط أن يكون القرار منى.. فلن يحارب من أجلنا أحد. إنها معركتنا وحربنا وضحايانا أيضاً!.

وانخفضت درجة حرارة الحديد الذى بيننا، وأصبحنا ندق حديداً بارداً.. وقلت لهم إن الوجود السوفيتى لا يخيف أحداً، لأن الجنود السوفيت لن يحاربوا. ولكن إذا يخيف أحداً، لأن الجنود السوفيت لن يحاربوا. ولكن إذا أرسلتم لى صواريخ أو سلاح الردع.. أو طائرات الاستطلاع التى تزيد على سرعة الصوت مرتين وثلاثاً.. فإن هذا الطائرات الاستطلاعية سوف تزعج إسرائيل 24 ساعة فى اليوم لأنه يستحيل على أى سلاح أن يلحق بها أو يقاومها..

أما الوجود السوفيتى بمائة ألف جندى فهو لا يخيف. وإذا كنت قد خرجت خمسة عشر ألف فى أسبوع، فإننى سوف أخرج المائة الألف فى عشرة أيام عندما أريد..

ثم سحبت مقعدى إلى الوراء لأقول: الآن أصبح كل شيء واضحاً !!.

ولكنهم بسرعة قالوا معاً: سوف تبعث لك بالأسلحة التى طلبتها قبل نهاية السنة.

وأعدت السؤال عليهم مرة أخرى : قبل نهاية هذه السنة؟

قالوا: نعم قبل نهايتها.

قلت: هذا يكفينى.

أما الأطقم السوفيتية فرأيت أن تبقى كما هى، فلن تضيف شيئاً. ولا خسارة علينا من وجودها. وإنما المهم أننى حصلت على صفقة جديدة وفى ذلك إضافة إلى قوة مصر..

وتوالت الشهور بطيئة جداً.. وموجعة جداً . وأحسست بأسنان الزمن أليمة. واقترب أكتوبر وانتهى. وجاء نوفمبر واختفى.. ثم ديسمبر.. وفى يوم 8 ديسمبر وقعت الحرب بين الهند وباكستان. ووقف الاتحاد السوفيتى إلى جانب الهند واستخدام مطارات مصر قاعدة لإمداد الهند بالذخيرة والسلاح!.

وفى نفس الوقت الذى كنت فيه فى موسكو كانت أنديرا غاندى تلف العالم تمهد لهذه الحرب سياسياً وإعلامياً. إذن لقد كان السوفيت يعلمون ما سوف يحدث فى ديسمبر. وكانوا قد أعدوا كل شئ لذلك. وكان فى استطاعتهم أن يقولوا لى: لا داعى لسنة الحسم هذه، فسوف تكون مشغولين لسبب أو لآخر..

ولكنهم لم يفعلوا.. وأخمدت غيظى فى نفسى.. وقلت: لقد كانوا أصدقاءنا فى الحرب.. وكذلك كانت الهند..

ولم يستطيع الرئيس نميرى أن يجئ إلى القاهرة، وأوفد أحد أعضاء مجلس الثورة. وحملة رسالة هامة. ولم يكد يصل إلى الخرطوم حتى كان الانقلاب الذى أدى إلى حبسهما معاً..

وبعملية حسابية بسيطة جداً، أدركت أن سنة 1971 لن تكون سنة الحسم.. وليس من العقل أن أجعلها كذلك.. فإن حرب الهند وباكستان قد لفتت العام كله.. واستوعبت كل اهتمام الناس وعطفهم وغضبهم وحرصهم على المساعدة أو التوسط أو الدعوة إلى السلام.. ولا يمكن أن تحظى مصر بهذا كله ... فسوف تكون حربنا هذه قضية صغيرة أمام قضية كبيرة أو حدثاً عابراً أمام كارثة دولية..

إذن لقد انتهى كل شئ. ولن تكون سنة 1971 هى السنة التى ناديت بها ووعـــدت وهددت. انحسمت سنة الحسم بلا حرب.

واستدعيت يوم 9 ديسمبر السفير السوفيتى لأقول له: واضح الآن أنكم لن تبعثـــوا بأية أسلحة. وإذا جاءت فبعد عام الحسم.. فما هو العمل؟

ولم يقل السفير شيئاً..

وقلت: حتى إذا أرسلتم هذه الأسلحة، فلن تصل قبل فبراير.. وبعد ذلك بشهور يتم تركيبها والتدريب عليها.. ولم ينطق السفير..

ولم يرسل السوفيت هذه الأسلحة حتى كتابة هذه السطور سنة 1976 ..

وعدت أهز السفير بعنف: ماذا أقول للشعب.. إننى لو حكيت كيف حدث هذا كله، وما كان منكم لكانت هذه فضيحة كبرى لكم.. لأضرت بكم ضرراً بالغاً فى المنطقة وفى العالم كله..

وطلبت من السفير السوفيتى أن يبلغ موسكو أننى أريد رؤية القادرة السوفيت قبل نهاية ديسمبر. هذه المرة دعوت نفسى إلى زيارة قادة الكرملين.

قلت له: قبل أن أصل أحب أن يكون معروفاً مقدماً أن الغرض من هذه الزيـــارة هو أن نصدر بياناً نغطى به الموقف الفظيع الذى يواجهنى فى مصر وفى العالم كله!.

وعن طريق التليفون المباشر مع موسكو أتصل بهم السفير. وأخبرهم.

وتوقعت أن يحددوا الموعد بعد أسبوع أو أسبوعين.. لم يحدث شئ من ذلك. فقـــد مضى أسبوع ومن بعده أسبوع آخر..

وفى يوم 28 ديسمبر جاءنى السفير السوفيتى يحمل هذه البشرى: القادة الســـوفيت يسعدهم أن يستقبلوك يومى 1 ، 2 فبراير!.

ومعنى ذلك أنه مطلوب منى وحدى أن أغطى موقفى فأنا الذى قررت وأنا الـــذى أتحمل ذلك. مع أننى لم أقرر ذلك إلا استناداً إلى وعودهم وعلى أرفع مستويات القيـــادة السوفيتية. إذن هذا هو المطلوب!.

ومعنى ذلك: أنه إذا كان السوفيت برجالهم وعملائهم لم يفلحوا فى إسقاطى، فهذه هى الفرصة التى أقوم فيها بإسقاط نفسى.. بيدى لا بيد السوفيت!.

ودارت الأفكار فى رأسى والسفير جالس أمامى.. وتـذكرت اقتـراب يـوم 31 ديسمبر سنة 1971. وتذكرت أننا ألغينا المعاهدة مع الإنجليز يوم أول يناير سـنة 1957 والسوفيت يستحقون ما استحقه الإنجليز: فمعاهدتهم هذه يجب إلغاؤها فى نفس التـاريخ. ولا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أتذكر ما قالوا وما قلت. ودوختى بين الأمل واليأس، بين الصبر والغضب، بين الصمت وبين السكوت على الفضيحة..

وتذكرت ما قاله لى المشير أحمد إسماعيل من أن برجنيف كان حريصاً علـى أن يصب الماء البارد على رأسى، لأن رأسى ساخن من الداخل، ولكن فى مواجهـة هـؤلاء الناس كان رأسى بارداً!.

وأحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت من موسكو فأطاحـت بسـنة الحسـم كلها.. ولكن لن أسمح لها بأن تطيح بى وبآمال شعبى..

وعندما أحنيت رأسى للعاصفة أعترف أننى أحنيته لمصر، فقلت للسـفير: قـل للقادة السوفيت إننى مسافر يوم أول فبراير.